المحاضرة: الأولى

بدايات الخطاب مابعد الكولونيالي مع فرانتز فانون " Frantz Fanon "

يتفق المهتمون بشأن الدراسات مابعد الكولونيالية على نسبة الفضل في ريادة هذا المضمار إلى الطبيب الأنتيلي[1] "فرانتز فانون" ، وذلك من خلال جملة المؤلفات التي خلفها صادحة بدراساته عن السلوكات الاستعمارية التي عاينها وما يقابلها من سلوكات تمس الشعوب المحتلة ، لذلك يعتبره الدارسون المؤسس الأول لخطابات مابعد الاستعمار خاصة وأن تأثيراته المعرفية واضحة في كل الجهود التي تلته تنظيرا وتطبيقا، باعتراف من أصحابها أنفسهم.

وقبل العروج إلى عرض أهم الأفكار والمرتكزات التي انبنت عليها رؤيته مابعد الكولونيالية، نقدم هذ التعريف الموجز بشخصه وأهم المؤلفات التي قدمها خلال مسيرته الثقافية والعلمية.

1- التعريف بشخصية فرانتز فانون: *

ولد فرانز فانون في 23 تموزعام 1925 في جزيرة المارتينيك في جزر الأنتيل، الواقعة في بحر الكاريبي بأمريكا الوسطى، وهي جزر تابعة للسيادة الفرنسيّة. وقد ولد فرانز فانون لأسرة زنجيّة مكوّنة من ثمانية أفراد، وكان الخامس بين إخوته. عاش فرانز فانون في مدينة "فور-دي- فرانس" بالمارتينيك، وهي نفس المدينة التي ولد وعاش فيها الشاعر والمفكّر العالميّ الكبير "إيميه سيزار" مؤسّس "حركة الزنوجة العالميّة".

درس فرانز فانون في مدرسة سيزار، الذي علّمه كيف يفتخر بزنوجته، وكيف يطالب بحقوقه ويدافع عنها كفرد، من خلال الدفاع عن حقوق الجماعة، أي حقوق الزنوج في المارتينيك، وعلى رأسها مطلب المساواة مع البيض الفرنسيّين، الذين احتكروا كلّ شيء وسيطروا على مختلف مناحي الحياة في الجزيرة الصغيرة لصالحهم.

استطاع خمسة أبناء من أسرة فانون الالتحاق بالجامعة ومواصلة الدراسات العليا في الجامعات الفرنسيّة، وواصل فرانز فانون تعليمه في الجامعة كإخوته، واستطاع أن يحقّق حلمه بأن يصبح طبيبا نفسيّا ، كما درس الفلسفة وبرع في تحليل العديد من الظواهر الإنسانية التي قابلته، باعتباره طبيبا مختصّا في تفسير السلوك النفسيّ الإنسانيّ وعلاجه من جهة، وبإعتباره أيضا مناضلا ضدّ قوى الاستعمار القديم من جهة أخرى.

كان لدى فـرانـز فـانـون شعور كبير بالانتماء للأفارقة بسبب لون بشرته الأسود، حيث كان يحسّ بأنّه جزء من النضال الإفريقيّ ضدّ الاحتلال الفرنسيّ والإنجليزيّ والبرتغاليّ والبلجيكيّ المتوسّع في القارّة الأفريقيّة آنذاك، لذلك أصدر كتابه ، "**بشرة سوداء، أقـنـعـة بـيـضاء**" ، لتفسير ظاهرة "الزنوجة" ، عبر شرح الـثـورة الإفريقية على المستعمر الأبيض.

كما قدّم فانون في العديد من المقالات التحليليّة دراسة لظاهرة التمييز العنصريّ في جنوب أفريقيا والولايات المتّحدة الأمريكيّة ، ليفكّك بنية ظاهرة التمييز العنصريّ بوصفها مشكلة غير أخلاقيّة وغير إنسانيّة، تقوم على استغلال الإنسان الأبيض للإنسان الأسود، ضمن نظام اجتماعيّ طبقيّ قائم على الظـلـم.

في عـام 1953 جاء فـانـون إلى الجزائر ، وبدأ عمله كطبيب بمستشفى البليدة، وهناك إكتشف أنّ القمع الاستعماريّ كان أحد أهمّ أسباب إصابة بعض الجزائريّين بالجنون، وبالفعل لقد كانت حصيلة 132 عـامـاً من القمع والإحتلال الفرنسيّ كبيرة في تأثيرها في نفسيّة كل جزائريّ شريف مقاوم للإحتلال، وقد كانت إحدى الأمثلة واضحة في قصّة الشيخ عبد الحليم بن سماية أحد زعـمـاء "جمعية علماء المسلمين الجزائريّين"، الذي قيل أنّه فقد عقله في الذكرى المائة لإحتلال الجزائر 1930، إذ لم يتحمّل الشيخ منظر الإحتفالات التي أقامها على أرض الجزائر المستعـمـرون الفرنسيون وبعض الأهالي المستسلمين، ليصاب بخيبة أمل كبيرة تسبّبت له بالجنون، واستمرّت حالته كذلك حتى وافته المنيّة وكانت حكاية الشيخ بن سماية من أهمّ الأمثلة الواضحة التي لفتت نظر فانون حول التأثير النفسيّ الكبير للإستعمار في نفسيّات وعقول الجزائريّين.

كان وجود فانون إلى جانب الأطباء والممرّضين في مستشفى البليدة دافعا لتطوير أساليب العلاج النفسيّ للمرضى، وتحقيق نتائج أكثر فعّاليّة بعيدا عن استخدام الأساليب التقليديّة في العلاج، كالعلاج بالصدمات الكهربائيّة.

دهش فانون لمعاملة الجزائريّين له، حيث كانوا يـعـتـبـرونه جزائريّا إلى أن يكتشفوا العكس، ففي إحدى المرّات خاطبته مريضة وطلبت منه أن يتحدّث معها باللغة العربيّة حتّى تفهمه ما دام جزائريّا ، وفي مرّة أخرى طلب منه أحد الجزائريين أن يتوب إلى الله حين شاهده يدخّن سيجارة في شهر رمضان، ظنّا منه أنّه عربيّ مسلم أفطر ، وكانت معاملة الجزائريين له سببا في تعلّقه الكبير بالمجتمع الجزائريّ، لأنّه وجد معاملة مختلفة عن تلك التي عهدها من قبل، حيث

كان سكّان المارتينيك يعتبرون الرجل الأبيض "الرجل الأذكى والأقوى والأفضل والأحسن دائما"، فيما الرجل الأسود هو "العبد الضعيف والأميّ المتـخـلـف"، الذي لا يمكنه أن يعيش سيّدا أبدا.

وفاته ونهاية نضاله

كان فرانز فانون في الجبهة الجزائريّة الغربيّة للقتال في مدينة وجدة ، وبينما كان خارجا من الثكنة ومارّا بإحدى طرق المدينة، رفقة جنديّ جزائريّ على متن سيارة جيب عسكريّة، إنفجرت قنبلة تحت السيارة تسبّبت له بجروح بليغة في ظهره، وأفـقـتـده الوعي تماما، ونظرا لعدم توفّر العلاج المناسب له في الجبهة، تمّ نقله إلى الولايات المتّحدة الأمريكيّة للعلاج ، لكنّ الأطباء الأمريكيّين اكتشفوا فجأة مرض سرطان الدمّ "اللوكيميا" لدى فـانون، فلم يكن بإمكانهم فعـل الكثير، وبقي فانون يعاني من مرضه في المستشفى إلى أن توفي في الـسـادس من كـانون الأول (ديسمبر) 1961 في واشنطون، وعمره لم يتجاوز 36 عاما.

2- ملامح مابعد الكولونيالية في فكر فرانتز فانون

عكفت الدراسات المهتمة بتقصي ملامح الخطابات مابعد الكولونيالية على استبيان المرتكزات الأساس في مشاريع مفكري هذه الخطابات ، وذلك في سبيل استخلاص أهم الدعائم التي تنبني عليها مشاريعهم الفكرية، وغني عن البيان أن هذه الدعائم يجب أن لا تقرأ مفصولة عن سياقاتها الحضارية والتاريخية ، التي تعطيها مشروعيتها المعرفية لأن متطلبات مرحلة تاريخية ما تختلف عن متطلبات مراحل أخرى ،مما سينجر عنه بالضرورة اختلاف في المفرزات الفكرية للمرحلة عن مفرزات مرحلة أخرى.

وعلى هذا الأساس ، يكون فهم لمواقف الفكرية لفرانتز فانون مرتبطا بطبيعة التحديات التاريخية التي عايشها أي فترة الاحتلال الفرنسي المباشر لكثير من دول افريقيا ومنها الجزائر ، وما صاحب ذلك من سلوكات استعمارية ، تصدى لها فانون بالمقاومة الثقافية التي أثمرت عددا معتبرا من الكتابات التي تؤسس مجتمعة لمنظوره مابعد الكولونيالي، وفي مايلي عرض لأهم أفكاره فيها.